

تفسير ابن كثير

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ^ط وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ^ق وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ مَّكْرِمٍ ^ج إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا
وكرها وسجود [كل شيء مما] يختص به ، كما قال : (أولم يروا إلى ما خلق الله من
شيء يتفيا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) [النحل : 48] . وقال
هاهنا : (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض) أي : من الملائكة
في أقطار السماوات ، والحيوانات في جميع الجهات ، من الإنس والجن والدواب
والطير ، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) [الإسراء : 44] . وقوله : (والشمس والقمر
والنجوم) : إنما ذكر هذه على التنصيص ؛ لأنها قد عبدت من دون الله ، فبين أنها تسجد
لخالقها ، وأنها مريوبة مسخرة (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن
إن كنتم إياه تعبدون) [فصلت : 37] . وفي الصحيحين عن أبي ذر ، رضي الله عنه ،

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ " . قلت :
الله ورسوله أعلم . قال : " فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال
لها : ارجعي من حيث جئت " . وفي المسند وسنن أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه ،
في حديث الكسوف : " إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت
أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له " . وقال أبو العالية :
ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر ، إلا يقع الله ساجدا حين يغيب ، ثم لا ينصرف
حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته . وأما الجبال والشجر فسجودهما
بفيه ظلالهما عن اليمين والشمال : وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله
، إني رأيتني الليلة وأنا نائم ، كأني أصلي خلف شجرة ، فسجدت فسجدت الشجرة
لسجودي ، فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجرا ، وضع عني بها وزرا ،
واجعلها لي عندك ذخرا ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقراً
النبي صلى الله عليه وسلم سجدة ثم سجد ، فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن
قول الشجرة . رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه . وقوله : (والدواب)

أي : الحيوانات كلها .وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر فرب مركوبة خير وأكثر ذكرا الله من راكبها .وقوله : (وكثير من الناس) أي : يسجد الله طوعا مختارا متعبدا بذلك ، (وكثير حق عليه العذاب) أي : ممن امتنع وأبى واستكبر ، (ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء) .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن شيبان الرملي ، حدثنا القداح ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي قال : قيل لعلي : إن هاهنا رجلا يتكلم في المشيئة . فقال له علي : يا عبد الله ، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء . قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف .وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله . أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت ، فلي النار " رواه مسلم .وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني

هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا مشرح بن هاعان أبو مصعب المعافري قال : سمعت عقبة بن عامر يقول : قلت يا رسول الله ، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجديتين؟ قال : " نعم ، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما " . ورواه أبو داود والترمذي ، من حديث عبد الله بن لهيعة ، به . وقال الترمذي : " ليس بقوي " وفي هذا نظر؛ فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع ، وأكثر ما نقموا عليه تدليسه . وقد قال أبو داود في المراسيل : حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني معاوية بن صالح ، عن عامر بن جشب ، عن خالد بن معدان؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أفضلت سورة الحج على القرآن بسجديتين " . ثم قال أبو داود : وقد أسند هذا ، يعني : من غير هذا الوجه ، ولا يصح . وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي : حدثنا ابن أبي داود ، حدثنا يزيد بن عبد الله ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو ، حدثنا حفص بن عان ، حدثني نافع ، حدثني أبو الجهم : أن عمر سجد سجديتين في الحج ، وهو بالجابية ، وقال : إن هذه أفضلت بسجديتين . وروى أبو داود وابن ماجه ، من حديث الحارث بن سعيد العتقي ، عن عبد الله بن منين ، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس

عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاث في المفصل ، وفي سورة الحج سجدتان . فهذه

شواهد يشد بعضها بعضا .